

## الله الأزلي

لو لم يكن المسيح هو الله ، إذاً فنحن - الذين نعبد - نكون وثنيين . وإذا كان هو الله وقصرنا في عبادته ، فنحن أسوأ العصاة على الإطلاق . ولو أن المسيح ليس هو الله ، إذا يكون مجدفاً وكاذباً ومحتالاً . ولا يمكننا حتى قبوله على أنه رجل صالح ؛ لمجرد إعلانه بوضوح عن لاهوته . أما إذا كان فعلاً هو الله بينما نحن نذكره على أنه رجل صالح فقط ، ففي هذه الحالة نكون مجدفين .

ولا يوجد تساؤل غاية في الأهمية وعظيم الأثر كهذا : من هو يسوع؟ هل هو الله أم لا ؟ ماذا يقول الكتاب المقدس في هذا الصدد ؟

### **يسوع هو الكائن قبل الدهور :**

يعلّمنا الكتاب المقدس أن المسيح يسوع كائن قبل أن يُحبلَ به وقبل ميلاده . فميلاده لم يحدد منشأه ، بل حدّد ظهوره على مسرح التاريخ . وطوال حياته على الأرض كان يوضح وجوده السابق لميلاده ، إذ قال عن نفسه في انجيل يوحنا 16 : 28 " خرجت من عند الأب وقد أتيت إلى العالم" . ووصف نفسه "كالنازل من السماء" يوحنا 3 : 13 ، ومرة أخرى سأل سامعيه عما يظنون إذا هم رأوه "صاعداً إلى حيث كان أولاً" يوحنا 6 : 62 . وقد برهنت هذه الإعلانات الجهارية بصلاته الشخصية إلى الله في يوحنا 17 : 5 "والآن مجدني أنت أيها الأب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم" .

لقد رأى كتاب الأسفار المقدسة الملهمين يسوع كما رأى هو ذاته . إنه هو "الذي كان من البدء" 1يوحنا 1 : 1 ، "في البدء" يوحنا 1 : 1 و"قبل كل شيء" كولوسي 1 : 17 . كان يسوع في العالم ، ليس كواحد له جذور بشرية طبيعية ، لكن كمن "يأتي من فوق .." كمن "يأتي من السماء" يوحنا 3 : 31 . لقد افتقر في حياته هنا على الأرض مع أنه هو الغني 2كورنثوس 8 : 9 . ولم يكن هذا الإنسان سوى "الرب من السماء"

1كورنثوس 15 : 47 . وإذ عرف يوحنا المعمدان حقيقة هوية المسيح ، تمكن أن يشهد لذلك الذي أتى بعده "قائلاً هذا هو الذي قلت عنه إن الذي يأتي بعدي صار قدامي لأنه كان قبلي" يوحنا 1 : 15 ، 30 .

### هو كائنٌ قبل الدهور في صورة الله :

لا يوجد دارس للكتاب المقدس يعجز عن الاقتناع ؛ بأن المسيح كائن قبل الدهور . لكن كثيرين منهم كانوا بطيئي الفهم في أن وجود المسيح السابق يعني لاهوته ، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه الأريوسيين في القرون الأولى للكنيسة ؛ مما سبب الكثير من المشكلات . لقد قبلوا الرب يسوع كالكائن قبل الأزمنة ، لكنهم لم يروا فيه سوى أعظم المخلوقين قاطبة ، وأن الله قد خلق الكل بواسطته . لم يستطيعوا أن يقبلوا أزليته . فالمسيح بالنسبة لهم كان أعظم ما خلق الله ، وأقرب ما في الوجود لله ، لكن لأنه قد خلق لا يمكنه أن يكون الله بنفس المفهوم الذي به الآب .

أما من عرفوا بجماعة شبه الأريوسية فقد كانوا أقرب للحق ، وإن ظلوا بعيدين عنه لقد قبلوا أزلية المسيح ، واستنكروا أن يكون قد خلق ، لكنهم لم يؤمنوا أنه مُساو لله الآب .

وفي اختلاف بين وواضح كل الوضوح عن هذه الآراء ، جاء إعلان الرب يسوع ذاته "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن" أهيه" يوحنا 8 : 58 . ولم يكن هذا الكلام إعلاناً عن وجوده قبل العالمين فقط ، إذ كان يمكنه الإعلان بالنص الآتي : " قبل أن يكون إبراهيم أنا كنت " . فتعبير " أهيه " ما هو إلا إعلان صريح عن استمرارية ودوام وجوده قبل إبراهيم وحتى لحظة نطقه لهذه الكلمات .

وإعلان الرب يسوع عن سبق وجوده هو إعلان أيضاً عن لاهوته . وقد فهم سامعيه من اليهود ذلك جيداً ، خاصة وأنهم يدركون تماماً أن كلمة "أهيه" هي التعبير الذي استخدمه الله في وصف ذاته لهم . ومن أجل ذلك كانت كلمات المسيح بالنسبة لهم تحديفاً علنياً ، فما كان منهم إلا أنهم رفعوا حجارة ليرجموه . إنهم لم يكونوا ليرجموه لو أنهم قد فسروا قوله بأسلوب أريوسي أو شبه أريوسي .

لقد ارتبط لاهوت المسيح ووجوده قبل الدهور معاً في ذهن يوحنا الرسول في بداية إنجيله ، فيبدأ بهذه الكلمات الرائعة والمعروفة لنا جيداً "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله . هذا كان في البدء عند الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" يوحنا 1 : 1 - 3 .

هذه الكلمات تستحق انتباهنا الشديد ، فهي توضح بجلاء تام أن الرب يسوع كان كائناً عند بدء تكوين الخليقة . فالمسيح يسوع لا بدءاً له . وبذات الوضوح تبين هذه الأعداد أنه غير مخلوق ، إذ لو كان مخلوقاً لما كان يمكن القول بأن "كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" . فالرب الكلمة لم يخلق وليس له بداية ، ونحن لا يمكننا أن نقبل أخطاء الأريوسيين .

يقول يوحنا البشير أن ذلك الأزلي غير المخلوق كان عند الله منذ الأزل، لكن هذا لا يعني أنه كان أدنى من الله ، كما ادعى شبيهو الأريوسيين. "وكان الكلمة الله" . كان يوحنا البشير جازماً في تصريحه عن لاهوت المسيح ، وتقف كلماته نقضاً لأبدياً لرأي شبيهي الأريوسيين ، فلا مجال لإغفال هذه الكلمات أو تجنب وقعها على قارئها . وفي الحقيقة ، فإن الأسلوب الذي كتب به يوحنا هذه الكلمات في الأصل اليوناني (حيث يسبق الخبر المبتدأ في الجملة) ينبر بلهجة مؤكدة على اللاهوت الكامل للمسيح ، وتكون كلماته صحيحة تماماً من الناحية اللغوية حين تكتب هكذا "وكان الكلمة الله ذاته!" .

وبالطبع يبدو كل هذا محيراً للعقل البشري . فكيف يكون " الكلمة " هو الله ، وفي ذات الوقت يكون " عند" الله ؟ وللإجابة عن هذا السؤال لابد أن ندرس عقيدة الثالوث ، وذلك ليس في مجال هذا الكتاب . ومع ذلك لابد من الانتباه للحقائق التي أعلنها يوحنا ، فنحن لا نستطيع إدراك كل هذه الأمور ، لكن من الخطأ بمكان أن نضل عن الحق المعلن في كلمات يوحنا البشير بسبب محدودية وضعف عقلنا البشري . فما ذكره واضح بما يكفي .

ويذخر العهد الجديد بالعديد من العبارات التي تحمل ذات التعليم الذي ذكره يوحنا البشير .ففي الرسالة إلى أهل فيلبي والأصحاح الثاني والأعداد من 5 - 11 (خاصة 5 - 7) توضح هذه النقطة . فيبولس يذكر بوضوح أن الرب يسوع كان له جسداً قبل مجيئه في وسطنا كانسان . في هذه الحالة كان مساوياً لله ، لكنه لم يتمسك بهذا الحق ، بل على النقيض نحى جانبا هذا الجلال الإلهي، وأخذ الطبيعة البشرية في صورة عبد ؛ وصار طائعا حتى أنه قبل الموت بهذه الطريقة المشينة. وفي كل هذا ، ترك لنا مثالا في إنكار الذات، وهذا ما يدعونا الرسول بولس لإتباعه . وكما أوضح الآلاف من المفسرين، فإن كل كلمة استخدمها بولس تستبعد فكر الأريوسيين عن تجسد المسيح . وقد استند بولس في تعليمه إلى تنازل المسيح غير المحدود ، فأبن الله الأزلي صار إنسانا !

وهناك فقرة أخرى لافتة للأنظار في نفس هذا السياق في (عبرانيين 1 : 1 - 3) . فوجود المسيح الأزلي قد تبرهن بالعبارات التي قيل فيها أن به (أي بالمسيح) قد عمل (يقصد الله) العالمين . وقد قيل عن المسيح الأزلي أنه بهاء مجد الله ورسم جوهره . ولكن ما معنى هذا ؟ إنه يعني أن كل البهاء الذي لله في مجده إنما يشرق من خلال ابنه ، ان مجد الابن لم يكن أقل بالرغم من تواضع مظهره الخارجي كيسوع الناصري . فقد كان "السكنينة" الحقيقية التي سكن فيها اللاهوت جسدياً ، والتمثيل الحقيقي والثابت والكافي للإله الأزلي ، غير المنظور ، الذي لا يمكن لعين أن تراه . فالرب يسوع المسيح هو الصورة الكاملة لله . إنه رسم جوهره . لقد أظهر الله لنا تماماً من خلال ذلك الذي قال "الذي رأيته فقد رأي الأب" يوحنا 14 : 9 . ان هذا السر يمكن أن يثير حيرتنا ، لكن لا يمكننا أن ننكره . فالخالق الأزلي ، المتميز عن الأب هو نفسه الله بذاته !

**هو الله :**

بيدي بعضهم الدهشة عندما نعلن أن الرب يسوع المسيح هو الله . وهؤلاء يعتبرون الآيات الافتتاحية لانجيل يوحنا البشير التي ذكرناها أنفاً أنها شاذة وغير عادية . ولكن الأمر ليس كذلك ، فأسماء الله وألقابه قد أعطيت للرب يسوع المسيح مراراً وتكراراً في الكتاب المقدس .

ومثال جيد لذلك هو كلمة " الرب " التي نجدها في كتابنا المقدس . لقد كتب العهد القديم باللغة العبرية ، حيث استخدمت كلمة " يهوه " المعروفة لنا جيداً بدلاً من كلمة " الرب " . وبمرور الوقت لم تعد العبرية هي لغة القراءة لليهود ، بل حلت محلها اللغة اليونانية ، فكان يلزم ان يترجم العهد القديم للغة اليونانية التي فهموها . وفي الترجمة التي عرفت باسم الترجمة السبعينية للتوراة ، ترجمت كلمة " يهوه " بالكلمة اليونانية " كيريوس " التي تعني الله . ولما كتب العهد الجديد باليونانية ، أطلقت هذه الكلمة بالتحديد على الرب يسوع المسيح ، والتي ترجمت إلى Lord أي " رب " في أغلب الترجمات الإنجليزية .

من هنا نرى أن الكلمة التي استخدمت للتعبير عن يهوه " الله " هي ذات الكلمة التي أطلقت على الرب يسوع المسيح . (انظر متى 7 : 22 ، لوقا 2 : 11 ، 5 : 8 ، يوحنا 20 ، 28 ، 1 كورنثوس 12 : 3 ، 2 بطرس 3 : 2 ، 18).

كل هذا سيثير حيرتنا فقط إن كنا لا نؤمن أن يسوع المسيح هو الله الأزلي . كما أن كاتب الرسالة إلى العبرانيين يرجع الكلمات الواردة في (مز 45 : 6 - 7) إلى الرب يسوع المسيح ، فيقول عنه في (عب 1 : 8) "كرسيك يا الله إلى دهر الدهور" وهذه واحدة فقط من فقرات متعددة من العهد القديم قيلت عن " يهوه " وأطلقت على المسيح بواسطة كتاب العهد الجديد . وبالنظر إلى تلك الفقرات يتضح لنا بسهولة أن المسيح هو " الله " (سفر العدد 21 : 5 - 6) (1 كورنثوس 10 : 9) . " يا إلهي .. أنت هو ، وسنوك لن تنتهي " (مز 102 : 24 - 27 ، عب 1 : 10 - 12) ، " الملك ، رب الجنود " (اشعيا 6 : 1 - 10 ، يوحنا 12 : 39 - 41) ، رب الجنود نفسه (اش 38 : 14 ، رو 9 : 33) "الإله القدير" (اشعيا 9 : 1 - 6 ، ومتى 4 : 14 - 16) ، " السيد " (ملاخي 3 : 1 ، متى 11 : 10) .

وفي نفس السياق لم يتردد بولس في أن يدعوه " .. المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد أمين " (رومية 9 : 5) ، " .. الله العظيم ومخلصنا " (تيطس 2 : 13) وفي هذا العدد بالذات يجدر الملاحظة بان بولس يتكلم عن شخص واحد بعينه (وليس اثنين) . وبالنسبة إلى يوحنا ، فهو " الألف والياء .. القادر

على كل شيء " (رؤيا 1 : 8) ، ثم يؤكد لنا بكل وضوح وبغير أي لبس أنه هو " الإله الحق والحياة الأبدية " (1 يوحنا 5 : 2).

### هو الله بكل الوضوح والتأكيد :

لن ندعنا الأسفار المقدسة نخطئ الهدف ونعتقد في المسيح أقل مما يجب. فلو رأينا فيه بالفعل أنه ابن الله الكائن قبل التجسد ، بل هو الله فعلاً ، فنحن بذلك لم نتجاوز الكتاب المقدس . فقد نسبت إليه كل الصفات الإلهية ، وعمل أعمالاً إلهية، وقبل كل التعبد له كإله . وسوف نشرع الآن في تنفيذ كل نقطة على حدة ، واضعين في اعتبارنا أنه من هذه النقطة فصاعداً - في كتابنا هذا- أننا نتكلم عن ربنا وإلهنا قبل مجيئه فيما بيننا كإنسان .

الأزلية هي إحدى صفات الله ، وقد نسبت إلى الرب يسوع المسيح بكل وضوح في الكتاب المقدس . فمثلاً في (اشعيا 44 : 6) نقرأ عن يهوه قوله " أنا الأول والآخر .. " إلا أن يسوع أيضاً يقول في سفر الرؤيا " أنا الألف والياء . البداية والنهاية . الأول والآخر " (رؤيا 22 : 13) حيث أن يهوه أزلي، ويسوع أزلي يتضح أن يسوع المسيح هو يهوه ، أي الله .

وعلى نفس المنوال ، نعلم أن الله ثابت لا يتغير (ملاخي 3 : 6) إنه هو هو دائماً لا يتغير . وما هو حقيقي عن الله وحده ، حقيقي أيضاً عن الرب يسوع المسيح . يمكننا أن نقول له في (عب 2 : 12) " ولكن أنت أنت .. " ونحن نتشجع عندما نعرف أن " يسوع المسيح هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد " انظر (عب 13 : 8) .

ولا يثير الدهشة أن ذاك الذي له صفات الله ، يرى صانعاً لأعمال إلهية حتى قبل تجسده . فالكتاب المقدس يبدأ بهذه الكلمات العظيمة " في البدء خلق الله السموات والأرض " (تكوين 1 : 1) . ولكنه لا يتركنا في شك أن يسوع المسيح هو الخالق ، وأن " كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان، وكوّن العالم به .. " (يوحنا 1 : 3 ، 10) ، أيضاً " الكل به وله قد خُلِق " ، " الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل " (كولوسي 1 : 16 - 17) . وقد وُجّهت الكلمات التالية للمسيح : " وأنت يا رب في

البدء أسست الأرض والسموات هي عمل يديك . هي تبيد وأنت تبقى وكلها كثوب تبلى  
" (عب 1 : 10-11) .

لكن هل خلق الله العالم ، ثم تركه يعمل بدونه ؟ أبداً . إنه شخصياً يحكم ويدير ما  
قد صنع . إذ أن " الرب في السموات ثبت كرسيه ومملكته على الكل تسود " (مز 103 :  
19) ، و " الرب صالح للكل ومراحمه على كل أعماله " (مز 145 : 9) ، ومن ناحية  
أخرى قيل عن يسوع أنه " هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل " (كولوسي 1 : 17) وإنه "   
حامل كل الأشياء بكلمة قدرته " (عب 1 : 3) ، فهو يحكم الخليقة منذ البداية وحتى  
يوماً هذا . فَمَنْ غير الله الذي يمكنه أن يعمل أعمال الله ؟

فإذا كان الأمر كذلك ، فنحن نتوقع سجوداً وتعبداً لشخص المسيح الكائن قبل  
تجسده ، وهذا بالضبط ما نجده . فقرأ في سفر اشعيا والاصحاح السادس عن  
حادثة عجيبة حدثت في حوالي عام 700 قبل الميلاد . رأى النبي اشعيا رؤية عن  
يهوه في الهيكل . رآه جالساً على عرشه محاطاً بكل مجد السماء ومن حوله  
السرافيم ، الذين مع كونهم بلا خطية ، لم يستطيعوا مجابهة مجده البهي ، فغطوا  
وجوههم وأرجلهم بأجنحتهم وصرخوا " قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده  
ملء كل الأرض " (اشعيا 6 : 3) لقد اهتز الهيكل من هذه الحقيقة ، وامتلاً دخاناً .  
أما النبي المشاهد لهذه الرؤية فقد بدا مأخوذاً تماماً ، وانتابه إحساساً عميقاً بنجاسته  
ودنسه مقارنة بما رأى .

ويخبرنا يوحنا البشير في بشارته أن ما رآه اشعيا كان مجد الرب يسوع المسيح !  
وبعد أن اقتبس ما قاله يهوه للنبي القديم آنذاك ، أضاف هو " قال اشعيا هذا حين رأى  
مجده وتكلم عنه " (يوحنا 12 : 41) . ويتضح من القرينة أن ضمير الغائب يعود على  
الرب يسوع المسيح . فيهوه الذي رآه اشعيا ؛ كان ابن الله قبل التجسد ، إنه هو الذي  
كان فوق عرش يهوه وكان ابهي من أن يرى وكان مركز عبادة السماء إنه الإله الأزلي  
. فلا عجب أن يكون احد قوانين السماء " لتسجد له كل ملائكة الله " (عب 1 : 6) .

## إنه ابن الله :

الوحي الإلهي يتحدث عن الوهية الرب يسوع المسيح بصورة مزدوجة ، فهو من جهة كامل الألوهية في ذاته ، وفي نفس الوقت ألوهيته وألوهية الأب تتسمان بترابط وانسجام جوهرى . ولا بد أن نذكر هنا شيئاً عن " أزلية الابن " كعقيدة ، لئلا يحدث لبس في الأمر ، وتكون هناك ذريعة للتقليل من مجد الابن، أو اعتباره في درجة من المجد أقل مما للأب .

وصف الرب يسوع المسيح على أنه " وحيد من الأب " (يوحنا 1 : 1)، وفي (يوحنا 1 : 18 ، 3 : 16) أنه " الابن الوحيد " ، وفي (يوحنا 3 : 18) " ابن الله الوحيد " . فوجود الابن يُعزّي للأب ، وليس العكس . وقد أُستخدم لفظ " البكر " في مناسبتين أخريين - مما يظهر بوضوح ما كان عليه قبل الخليفة كلها(كولوسي 1 : 15 ، عبرانيين 1 : 6) . من الواضح أن علاقة الأب بالابن متفرّدة ، ومع ذلك فقد تعامل الكتاب المقدس مع عقولنا البشرية المحدودة كي نفهم هذا الحق الفريد باستخدام مصطلحات نفهمها . وقد قرأنا قبلاً في (عبرانيين 1 : 3) أن الابن صورة الله الأب ورسم جوهره وبهاء مجده وواضح ان المقصود أن نفهم انه غير ممكن ان يكون بدون الله الأب . ولكن لم يُذكر أبداً أن الأب هو صورة الله الابن .

ويجب ملاحظة أننا لا نعني أن الله الأب قد خلق الابن . وكان قانون الإيمان الذي وضعه اثناسيوس محققاً أن يوضح أن الابن من الأب فقط ، مولود غير مخلوق . ونقول مرة ثانية أن الرب يسوع المسيح غير مخلوق . إنه مساو لله الأب . فكلاهما الله السرمدى ، وكلاهما الله الواحد .

كما أننا لا نقول أن الله الأب اختار أن يفعل شيئاً أو أن شيئاً لم يكن موجوداً لكنه ظهر فعلاً . لا ، نحن نتكلم عن شيء يحدث طبيعياً في اللاهوت وحدث هكذا منذ الأزل . شيء يحدث الآن وقد حدث منذ الأزل . وإلا كان هناك تغيير في اللاهوت وهذا مستحيل ، علاوة على أنه يناقض التعليم الكتابي الصريح عن المسيح في ميخا 5 : 6 " مخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل " (انظر مت 2 : 6 ، يو 7 : 42) .



ونحن نكرر هنا ، أن الله الأب لم يجعل الله الابن إلهاً ، بل هو الله بذاته. ومع ذلك ، فوجود الابن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأب. وفي اللاهوت يحدث شيئاً مشابهاً للصلة بين التفكير والكلام. فالابن هو التعبير عن الله الأب. وهنا نستطيع أن ندرك لماذا قيل عنه أنه " الكلمة " الذي كان في البدء عند الله ، وكان الكلمة الله (يو 1 : 1 - 2) . هذا هو الابن ، الذي لم يكن ممكناً أن نعرف الأب إلا به . والأب لم يكن ليجد من يعبر عن نفسه بدون الله الابن . وهذه هي العلاقة بين الأقنومين الأول والثاني من الثالث .

وهناك نصوص كتابية عديدة في الكتاب المقدس تتكلم عن هذا الحق السري الذي نحن بصدده . فالرب يسوع المسيح هو الله بذاته ، ولكن لتأمل في الأساليب التي وصف بها ليس فقط كلمة الله (يوحنا 1 : 1) ، ورسم جوهره (عب 1 : 3) ، لكنه أيضاً في صورة الله (في 2 : 6) ، و " صورة الله غير المنظور " (كو 1 : 15 - 2 كو 4 : 4) . وهكذا نرى أن هذه الحقيقة تلح علينا دائماً ، ولا يمكن للابن أن يكون في ما هو عليه بدون الله الأب . إن كيانه مرتبط بالله الأب .

من الأهمية بمكان التأكيد على أن علاقة الأب بالابن لم يكن لها بداية. فلا يجب بأي حال أن نظن أن يسوع دُعي " الابن " فقط منذ ميلاده كإنسان في هذا العالم . لقد أوضح يوحنا البشير هذه الحقيقة في (يو 1 : 14 - 18) عندما صرّح بان الناس قد تمكنوا من رؤية الابن الوحيد الذي للأب عندما أخذ جسداً ، لكنه كان الابن الوحيد قبلاً . لقد كان ابن الله العزيز عندما خلق الكون (كو 1 : 14 - 20) . انها لم تكن حالة جاءت بعد ذلك . نجد أيضاً أن الوحي يتكلم عنه كابن الله قبل أن يذكر ميلاده في كل من (رو 1 : 3 ، غل 4 : 4) . لقد كان الابن قبل أن يأتي في شبه جسد الخطية (رو 8 : 3) ، وكان الابن قبل أن يرسله الله إلى العالم (يو 3 : 16 ، 1 يو 4 : 9) .

وتعتبر الآيات الواردة في (عب 1 : 5 - 8) ذات أهمية خاصة . فقد أعلن فيها أن الرب يسوع المسيح - كالابن - هو الله ، وسيملك على العرش إلى دهر الدهور . إنه " البكر " الذي أدخل إلى العالم ، وبنوته أزلية ، وعلاقته بالله الأب لا بداية لها ، وهي فريدة من نوعها وتتجاوز حدود إدراكنا ، " وليس أحد يعرف الابن إلا الأب . ولا أحد يعرف الأب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له " (مت 11 : 27) .

### إنه المسيح القدوس :

كان الغرض من هذا الفصل الافتتاحي هو توضيح أزلية لاهوت ربنا يسوع المسيح . أما الفصل التالي في كتابنا هذا فسوف يبحث في مجيئه فيما بيننا ، وسيوضح أن لاهوته كان أكثر جلاءً حتى بعد تجسده عن ذي قبل . ولكي نعدّ أنفسنا لذلك ، نحتاج أن نختم هذا الفصل بالتوضيح الآتي ، لقد تبرهن - بما لا يدع مجالاً للشك - أن المسيح الآتي إلى العالم هو الله ، حتى قبل مجيئه للعالم ولنتأمل في بعض الأمثلة :

يتكلم الوحي الإلهي في المزمور الثاني عن ملك قيل عنه أنه ابن الله . ذلك وُعد بمُلك شامل على الأرض وكل سكانها . وحضّ الجميع على الخضوع له والثقة فيه ، لئلا يتعرّضوا لغضبه . وقد أدرك اليهود أن المقصود هنا هو المسيح المنتظر ، على الرغم من تصميمهم على التقليل من شأن كل الشواهد الكتابية التي تؤكد لاهوته . ومع ذلك ظلت هذه الحقائق واضحة جداً . في (اعمال 13 : 33) أعلن بولس الرسول أن هذا المزمور إنما يقصد الرب يسوع المسيح . لقد لُقّب المسيح بالألقاب الإلهية قبل تجسده بزمان بعيد . لقد عُرف بأنه ابن الله قبل قرون طويلة من اتخاذه الطبيعة البشرية .

واعتبر اليهود أن مزمور 45 يشير أيضاً إلى المسيح ، وقد تأكدت هذه الحقيقة بكتاب العبرانيين (انظر عب 1 : 8 - 9) . لقد أوضحت هذه الأعداد بجلاء أنه من اللائق أن يُدعى يسوع الله ، وأن عرشه أبدي . كما أوضحت أن كيان الابن هو في ذاته ولم يُصبح هكذا عند تجسده .

ويشير مزمور 110 إلى المسيح ببرهان لا يدع مجالاً للشك ، وذلك لما جاء على فم الرب يسوع المسيح نفسه في (مت 22 : 43 - 44) ، وما قاله كاتب الرسالة للعبرانيين (عب 5 : 6 ، 7 : 17) . لقد دُعي رب داود ، وقد استخدم اسم "أدوناي" الذي يستخدم فقط للإشارة إلى الله الأسمى ، إله إسرائيل . لقد دُعي هذا الإله للجلوس عن يمين يهوه حتى يضع أعداءه موطناً لقدميه . وهذا واحد فقط من شواهد كثيرة في

العهد القديم تكشف النقاب عن هذه الحقيقة المذهلة، أن الابن منفصل عن الله ، ومع ذلك فهو الله ذاته !

وأمثلة مماثلة كثيرة نجدها في أماكن متفرقة في كتب أنبياء العهد القديم . في (اشعيا 9 : 6) يتكلم النبي عن المسمي الآتي كالإله القدير (انظر مت 4 : 14 - 16) ، ولم يكن هذا لقباً لتبجيله بعد ميلاده ، بل كان حقيقة هويته عند ميلاده . ويراه إرميا النبي أنه " الرب (أي يهوه) برُّنا " (ارميا 23 : 6) . وكان لدى زكريا النبي الجرأة المقدسة حتى يذكر أنه " رفيق " يهوه ! (زك 13 : 7) (انظر مت 26 : 31) . لم يكن هناك مجال للخطأ في من ينتظره اليهود . فالمسما البشري الذي ينتظرونه يسكنه اللاهوت وسيكون واحداً مع اللاهوت . سيكون الله نفسه .

من الصعب أن نفهم كيف فشل اليهود في معرفة هوية المسيح حال مجيئه بينهم . والتفسير الوحيد المقبول هو العمى الروحي عديم الشفاء الذي أصابهم . لقد تكلم آخر أنبياء التوراة عمّن انتظروه " كالسيد ، الذي تطلبونه " (ملا 3 : 1) . والكلمة المستخدمة هنا أيضاً هي " أدوناي " . وأطلق على الهيكل المخصّص لعبادة يهوه " هيكله " . ولإزالة أي أثر للشك ، أعلن أن المسمي القادم سوف يتكلم بالقضاء الإلهي (ملا 3 : 2) . بعد كل هذا كان يجب أن يكون واضحاً لهم هوية المسمي الذي كانوا ينتظرونه .

لقد أخبروا أيضاً أن مجيء المسمي القدوس لن يكون مفاجئاً لهم بل سوف يسبق مجيئه رسول يعدّ الطريق أمامه . وصمت صوت الوحي المقدس بعد هذه النبوءة مباشرة . ومضى جيل بعد الآخر دون أن تأتي أية رسالة أخرى من السماء .

ولم ينكسر الصمت إلا بعد أربعمئة عام . فقد وقف يوحنا المعمدان على ضفاف نهر الأردن معلناً أنه هو الآتي ليعدّ طريق المسمي ، الذي تكلم عنه ملاخي (مر 1 : 2 ، يو 1 : 23) . وقد كان مثل إيليا تماماً في ملبسه وسلوكه ورسالته ، وهذا ما جعله بحق المتمم لنبوءة ملاخي (ملا 4 : 5 - 6) (وانظر مت 11 : 7 - 15) .

كان ظهور هذا الرسول الذي سبق التنبؤ بقدومه ؛ إيذاناً بان مجيء " الرب  
" و " المسيا " قد صار قاب قوسين أو أدني ، واضطربت الأمة اليهودية بأسرها . لمن  
بالتحديد كان يوحنا يعد الطريق ؟ من هو ذاك الذي جاء ليبشر به ؟

في اليوم التالي رأى يوحنا يسوع قادمًا نحوه فقال " هوذا حمل الله الذي يرفع  
خطية العالم . هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدامي لأنه كان قبلي . وأنا  
لم أكن أعرفه . لكن ليظهر لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء .

وشهد يوحنا قائلاً إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه .  
وأنا لم أكن أعرفه . لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً  
ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس . وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن  
الله . " (يوحنا 1 : 29 - 34)

لكنهم فشلوا في فهم ما كان يوحنا يوضحه لهم . ولم يكن خطأ يوحنا ، فقد كانت  
شهادته عن المسيح واضحة بما فيه الكفاية، لكنه كان خطأهم هم . فقد أعمت الكبرياء -  
في ثوبها المعروف من التحزب وعدم الإيمان - عيونهم عن رؤية الحقيقة الواضحة .  
وإذا لم نقبل نحن أيضاً شهادة الإنجيل عن شخصية المسيح ، نكون مثلهم تماماً ،  
فالقلوب الساجدة لا تجد صعوبة في التعرف عليه .